إحياء النحو

الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

لا شك فى أن نحونا العربى أصبح علماً جافاً يورث النظر فيه السأم والملل . ولا يسعنى مع هذا أن أنكر تلك الجهود الموفقة التى بذلها الأستاذ الجليل على الجارم فى تسهيل النحو وتجميله فى كتاب (النحو الواضح) فصارت به دروس النحو الأولى سهلة مقبولة لدى الناشئين ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وتقرن العلم بالعمل قرناموفقاً ، ولكن نحونا العالى لا يزال فى الحالة السيئة التى وصل اليها من يوم أن أخذ من أحضان علم الأدب الذى نشأ النحو فى ظله ، وترعرع فى أرضه الخصبة .

وكان الامام على بن عيسى الرمانى أول من انتزع النحو من حضنه بين الأدب وعلومه ؛ وقد ولد الرمانى سنة ٢٧٦ هـ وأخذ عن الزجاج ، وابن السراج ، وابن دريد ، ثم برع فى علم النحو حتى قال أبو حيان التوحيدى : لم ير مثله قط علما بالنحو ، وغزارة بالكلام ، وبصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، وإيضاحا للمشكل ، مع تأله وتنزه . ودين وفصاحة ، وعفاف ونظافة . وكان يمزج النحو بالمنطق ، حتى قال الفارسى إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شىء ـ قلت : النحو ما يقوله الفارسى ، ومتى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق ، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر ، لم يعهد فيها شىء من ذلك .

على أن النحو لم يزل يبعد عن الأدب بعد الرمانى شيئا فشيئا ، حتى أصبح العالم بالنحو لا يدرى شيئا من الأدب ، ولا يستطيع أن يقوم لسانه أو قلمه إذا نطق أو كتب ، وحتى أصبحت بعض الشواهد النحوية تروى مغلوطة وتمضى عليها أزمان طويلة فلا يتنبه إلى غلطها ، ولا يعرف مع هذا قائلها ، وليس هذا إلا من فصل النحو عن الأدب . والعناية بحفظ قواعده ونكاتها الفلسفية ، وإهمال صبغته الأدبية التى كانت تراعى فى عهد ازدهاره .

وإنى أسوق من ذلك هذا الشاهد الذى يذكر فى باب التوكيد لكنه شاقه أن قيل ذا رجبُ يا ليت عِدَّةَ حول كلهِ رَجَبُ

برفع كلمة (رجب) فى آخر البيت ، فهذا الشاهد لا يعرفون قائله إلى الآن ، وهم مخطئون فى رفع كلمة (رجب) فى آخر البيت لأنها من قصيدة رويها على النصب لا على الرفع . وقد جاء فى كتاب الكامل للمبرد وشرحه رغبة الآمل للشيخ المرصفى (ص ٢١٤ ج ٧) أن عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى كان يؤم بالناس فى مسجد الأحزاب بالمدينة ، فلما وليها الحسن بن زيد منعه أن يؤم الناس فى هذا المسجد ، فقال له : أصلح الله الأمير ، لم منعتنى مقامى ومقام آبائى وأجدادى من قبلى ؟ قال : ما منعك منه إلا يوم الأربعاء ، يريد قوله :

يا لَلرجال ليوم الأربعاءِ أمَا ينفكُّ يحدث لى بعد النُّهَى طَرَبَا
إذ لا يزالُ غزال فيه يفتنى يأتى إلى مسجد الأحزاب مُنتقِبَا
يُخبِّرُ الناسَ أن الأجرَ همَّتُهُ وما أتى طالباً للأجر محتسبا
لو كان يطلب أجراً ما أتى ظُهُراً مُضمَّخاً بفَتيت المسك مختضباً
لكنه شاقه أن قيلَ ذا رجب ياليت عِدَّة حولٍ كلهِ رجَبَا
فإن فيه لمن يبغى فواضلَهُ فضلا وللطالب المرتاد ما طلبا
كم حُرَّةٍ دُرَّةٍ قد كنتُ آلفُها تسدُّ من دونها الابوابَ والحجبا
قد ساغ فيه لها مَشْىُ النهار كما ساغ الشرابُ لعطشان إذا شربا
يقال شهر عظيمُ الحقّ فى سَنَةٍ يهوى له كلُّ مكروب إذا كربا
فاخرجنَ فيه ولا ترهبنَّ ذا كذب قد أبطل الله فيه قول من كذبا

وكانت ولاية الحسن بن زيد بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب المدينة سنة ١٦٠ هـ فى عهد أبى جعفر المنصور ثانى ملوك العباسيين

فإحياء النحو عندى بأن تعاد له صبغته الأدبية التى كانت له وليس إحياؤه بتطويل الكلام فى أن الفتحة ليست علامة إعراب كما قرأته فى بعض الكتب الحديثة ، فإن هذا مما يزيد فيه الطين بلة ، ولا يؤدى بنا إلى الاصلاح المنشود له

عبد المتعال الصعيدى